

## من مذكراته للأديب أحمد الطاهر

قد أقرض فلاناً مائة جنيه ، ولست أدري إن كان قد كتب بها سكا أم استوثق زوجي من صدق وفائه بلسانه ، وقد ألحت على الحاجة والوفاء لهذه البنت اليتيمة فطلبت الذي عليه الحق بالحق : فطلتني ، ثم ألحت ، فردني ، ثم رجوته فصدق عني ، ثم توصلت إليه فهرني ، وما وجدت منه الا إنكاراً وجحوداً ، وجفاءً وصدوداً . ولما رجعت من عنده بخيبة الرجاء ، واليأس من الوفاء ، اندفعتُ أهده وأوعده برفع الأمر إلى القضاء . فأجابني بقوله : ( وهل تحت يدك صك بهذا الدين ؟ ) . طار رأسي ، وذهبت نفسي شعاعاً ، وأحسست كأن الدنيا تضيق بي حتى لا تتسع إلا لنتق تعصره عصرآ ، وما وجدت ما أضع به فقه وإنكاره . لذلك جئت إليك بجملة من أوراق الرحوم لعلك واجد فيها سكا أو سجلاً بهذا الدين أو ما يعني عن الصك والسجل . أرايت خراب الدم ؟ أرايت قلة الوفاء ؟ أرايت نسكت اليهود ؟ أرايت الى الناس لا يستوثقون باللسان المحي الذي هو من صنع الله ، ويستوثقون بالورقة الخرساء التي هي من صنع الانسان ؟ رحماك اللهم رحماك !! »

— قلت : « خلى عنك يا أختاه . فلفل هذا نزلت حدود الله . أما سمعت قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إذا تدانتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليمثل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئاً . ) »

— قلت : « سبحان الله العظيم هذا كلام أزلني قديم وكأنا نزل لأهل هذا العهد الحديث ، بل لكأنا نزلت هذه الآية لتكون فيصلاً بيني وبين هذا الدين . »

— قلت : « وفي هذا وفي مثل هذا تجدين إجاز القرآن الحكيم »

ودفعت الى بالأوراق فنشرتها ونظرت فيها ورقة ورقة وهي مطرقة مغرقة في التفكير . وما انتهت منها إلى ورقة أطلت فيها النظر حتى رفعت رأسها عن يدها ونظرت إلى متلهفة وقالت : « أوجدت الصك ؟ »

— قلت : « لا . ولكني وجدت ورقة لعلها من مذكرات زوجك رحمه الله — وبودي أن أقرأها لك فستجدين في سماعها

خفت إلى مع الصباح ، وحينئذ بتجته ، وعليها من الثياب سواد ، فرددت عليها التحية في تल्प ورعاية ورفق ، وجلست سامتة واجمة خائرة النفس منهوكة القوى شاردة الفكر . ثم أخذت تجيل النظر في المكان الذي احتوانا ، وأخذتُ أختلس النظر إليها فإذا هي تنظر إلى الأرض ، ثم ترفع البصر الى السماء ثم تنجى إلى نظرة وادعة حزينة ، وفي هذه النظرات الثلاث تمبير صادق عما يختلج في نفسها من المعاني : من تفكير عميق فيما نزل بها من بأساء ، إلى توسل إلى الله بالصبر والرضا بالقضاء ، إلى رجاء فيمن تزور ليدفع عنها هذا البلاء .

— ثم قالت : « إني أعلم ما كان بينك وبين زوجي رحمه الله من صداقة ووفاء وإخلاص ؛ ولقد ذكر لي فيما كان يذكر من شأنه أنك كنت مثابة له في الرأي ، وعوناً في التدبير ، ونصيراً في الشدة ، أليس كذلك ؟ »

— قلت : « نعم كنا كذلك ، وكنت أجديه ما تذكرين لي . رحمه الله ، وطيب ثراه . »

— قالت : « ما أفزعني اليك اليوم وفي هذا الصباح الباكر إلا ما يحز في قلبي حزراً ، وبمصر فؤادي عصرآ ، مما أجد من همي وهم الناس : فأما همى فهو الذي تعرفه والتي إن أخفاء لسانى أعلنته ثيابى ، وأما هم الناس وما أحمل منه ، فذلك فيما أرى فيهم من قلة الوفاء ، وخراب الدم ، وتحجر الآكباد ، وضيعة الأخلاق : فلقد كنت أسمع من والدى ووالدى — رحمهما الله — أن الناس في العهد القاب كان الواحد منهم ينطق بالكلمة فإذا هم بينه وبين صاحبه عهد لا يتقض ، وميثاق لا يجل ، وإل لا ينكث به ؛ أما اليوم فما أرى الناس إلا عن ذلك صادقين : يقول الواحد منهم ما يقول ، وبعد بما يمد : فلا يقام لقوله وزن ، ولا يحسب لوعده حساب ، ما لم يسجل قوله ووعده في كتاب ، بل لقد يتكرون ما خلت أيديهم في الكتب ، ولو شهد عليهم شهود ، ولم في ذلك طرائق وحيل . هذا زوجي — رحمه الله —

عزاء وروحاً . وستجدين زوجك فيها يتحدث إلى نفسه  
بجواطره ولكنه يسوق إليك وإلى ابنتك الحديث »  
— قالت : « اقرأ » . . . فقرأت :

« ما أسعد الانسان المظمن ! وما أحلى الطمأنينة في كل شيء ،  
هذه هي السعادة حقاً ، وما أشقى الانسان الحائر المضطرب ! وما  
أمر الحيرة والاضطراب في أي شأن من شؤون الحياة ! هذا هو  
الشقاء بعينه ، ولست أدري لم حار الفلاسفة والمفكرون في تعريف  
السعادة واختلفوا ، وما لهم لا يقولون إن السعادة هي الطمأنينة ،  
وما لهم لا يستقرون إلى أن الطمأنينة والسعادة مترادفان يفهم  
من أحدهما ما يفهم من الآخر ؟ . أغلب ظني أن الفلاسفة  
والمفكرين يتسامون في التفكير ويحلقون في أجواء البحث فتدق  
عن أبصارهم هذه الحقائق البسيطة . السعادة هي الطمأنينة  
والشقاء هو الفزع

هأنذا أخرج من بيتي صباحاً أعدو إلى عملي ثم أروح وقد  
أديت العمل على خير ما يؤدي الواجب ويحمد لي الناس أداءه  
ويرضى ضميري عن أدائه . فأطمئن ولا يفزعني عن هذه الطمأنينة  
شيء من الأشياء فلم لا أكون سعيداً ؟ أتق الناس : منهم  
الصديق ومنهم العدو ، ومنهم من لا تربطني به صلة وثيقة ، ومنهم  
الكبير ومنهم الصغير ، فيلقاني كل واحد من أولئك بإسماً مصاحفاً  
لا يسألني عن شأني ولا أسأله عن شأنه إلا بمقدار ما تدعو اليه  
العلاقة التي بيننا فلا يكون سؤالاً وسؤاله إلا في رفق ولين ورغبة  
في المون إن كان بي أو به حاجة إلى المون . وإن لا تقامل عن  
شيء فما يكون بيني وبينه إلا التحية وردها . فأنا بين هؤلاء  
وهؤلاء مطمئن وادع لا يفزعني عن طمأنيتي شيء من الأشياء .  
فلم لا أكون سعيداً ؟

وتعشى الأيام والأسابيع والأشهر وما شاء الله من أقسام  
الزمن وأنا أعدو وأروح بين الناس وأختلف إلى ما يختلفون إليه  
من شؤون الحياة وأنا واحد في جسمي هذا النشاط وهذه القوة ،  
لا يعوقني في سبيلي مرض ولا تقعدني علة ، فأنا مطمئن إلى صحتي  
مادمت صحيحاً ، ولا يفزعني عن هذه الطمأنينة شيء من الأشياء ،  
فلم لا أكون سعيداً ؟

وأخلاف الرزق في الحياة تصل إلى من طريقتي كدى  
وجهدى وما ترك الوالدون من موارد الرزق للأبناء تصل إليهم

في سعة أو في ضيق وأنا بذلك راضٍ وإلى ذلك مطمئن : لا يفزعني  
عن طمأنيتي شيء من الأشياء . فلم لا أكون سعيداً ؟  
وأنا في كل يوم من أيام حياتي أؤدي إلى الله وإلى الناس  
ما يجب علي من الشكر والبر بقدر ما أستطيع وكيفما يجب :  
لا يصدني عن ذلك صاد ولا يصدف بي عنه صادف ، فأنا مطمئن  
إلى علاقتي بالله وبالناس لا يفزعني عن الطمأنينة مفزع . فلم  
لا أكون سعيداً ؟

أما إذا لقيت في عملي نصيباً وعناء ، أو أحسست من نفسي  
بنفسى عجزة عن أدائه ، أو قصوراً عن وفائه ، فهنا يكون الفزع  
وهنا الخروج عن الطمأنينة ، وهنا الشقاء  
وإن رأيتُ الناس يمدون إلى يد السوء ، أو لسان السوء ،  
أو عين السوء ، فأشد ما أتق من الفزع والجزع ، وهنا الشقاء  
وإن رأيتُ معاول المرض تعمل في جسمي ، وتهد من  
قواي ، وتبعث في هذا الجسم رسالات من الألم شديدة أو غير  
شديدة ، فهنا الفزع وهنا الشقاء

وإن رأيت ... وإن رأيت ... مما يحول بيني وبين السكينة  
ويوقمني في الفزع والاضطراب ، فهنا وهناك الشقاء  
والسعادة والطمأنينة غاية ليس وراءها من شيء ، ولا يجد  
السعيد المظمن في مهاد السعادة ما يبعثه على التفكير في أسبابها ،  
ومن أين أتت إليه ، وأى السبل اتخذت إليه ، لأنها اطمئنان  
واستقرار ورضا ، وسبيل لا هوج فيه ولا التواء

أما الشقاء - أعاذنا الله منه - فلا يكاد ينزل بالمرء حتى يفسد  
عليه نفسه ، ويلقى بالحيرة في ضميره ، فلا تهدأ النفس عن  
الاضطراب بين علة وسبل الخروج من مضائقه . ولا يهدأ  
العقل عن التفكير في هذه العلة وهذه السبل ، ولا يهدأ الضمير  
عن أن يتخذ لنفسه أشكالاً وأوضاعاً يسميها الناس وخزاً  
وتأنيباً وندماً وقلقاً وتبرماً وحسرة ؛ وما إلى ذلك من  
الأسماء تختلف باختلاف أنواع الفزع وأسباب الشقاء . وهنا  
يكون الشق بين شق الرحي : شقائه الذي نزل به واضطراب نفسه  
وعقله وضميره في مبعث الشقاء وسبل الخروج منه . وكثير  
من الناس يزيد في شقائه نفسه بنفسه حين يخطئ السبيل التي  
تؤدي إلى الخلاص من الشقاء ، أو حين يضل عن هذا المثقب  
الصغير الذي نفذ إليه منه البلاء ، أو حين يتلمس الراحة من

خلت إلى هذه النفس تحدثني بعض ما يجب على الرجل نحو  
أبنائه وأهله . وتبسط لي كيف يجزي الطفل على ذنوبه وطواياه  
وضعف حيلته ، وكيف تجزي الزوجة على أوثقها الضعيفة .  
وأموئها السامية الشريفة ، ورعايتها لزوجها وولائها له . فأذكر  
إذ ذاك المطف والحنان ، والرعاية ، والوفاء ، وعرفان الجليل ،  
وحسن التقدير ، ويذهب هذا كله بما بقي في نفسي من هم . وإذا  
أنا بعد هذا وبهذا مطمئن وسعيد

وثالث هذه السبل هو هذا القلم الذي أكتب به : أصل  
بينه وبين نفسي فإذا ما فيها من الهم والأسى ينساب إلى قنائه في  
سهولة ورفق واطراد ، وإذا هو ينثر ما في النفس على الورق  
ألغافاً وأسطراً وسحائف . وما أزال أكتب حتى يقف القلم ،  
فأنظر إلى نفسي فإذا القلم قد استترف كل ما فيها من الهم لم يترك  
بقية ولا ذمامة . فأقرأ ما كتبت وأقيسه بما كان في نفسي ،  
فإذا هو هو لا يزيد عنه بمقدار ولا ينقص عنه بمقدار . وإذن لقد  
أفرغت نفسي من الهم واطمأنت وإني لسعيد

ولعمري إن هذه السبل الثلاث لهي خير ما اهتديت اليه  
من سبل التخفيف من همي . وأنا فيما يجزيني من الأصرأأخذ سمتي  
اليها مجتمعة أو متفرقة ، فأجد فيها راحة وشفاء واطمئناناً  
وسعادة . ولقد أخذت سمتي الليلة إلى هذه السبل الأخيرة  
« سبل القلم » فكتبت ما كتبت وأحس أن ليس في نفسي  
أكثر مما كتبت

وإذن لقد فرغت نفسي من همها واطمأنت وإني لسعيد اهـ

\*\*\*

وما انتهيت من القراءة حتى نظرت إلى باسمة راضية ،  
وتبددت عن وجهها سحابة الحزن والأسى وقالت : « أي والله ،  
لهذا خير عندي من الصك ألف مرة . أكان رحمه الله يجيد العزاء  
في كتاب الله ، وفينا ، وفي قلمه ؟ قل لي بربك يم أجزيه عن  
فضله وبره ؟ وماذا أفعل بهذه الورقة وهي فيما أرى سجل حياته  
وعهده الكريم بين الله وأهله ونفسه .

— قلت : « أكرمها »

— قالت : « وكيف ؟ »

— قلت : « تحفظينها عندك ذخراً ، وأنشرها لك في

البرزخاني أحمد الطاهر

(الرسالة) ذكرى

العناء فيما لا يزكو بالمائل التماس الراحة فيه

وما من سبيل لأن تصد للناس حصراً أسباب الشفاء .  
ولا سبيل الخلاص من الشقاء ، ولكنني وجدت سبلاً ثلاثاً ،  
كلها أفزعت عن طمأنينة السعادة إلى مضطرب الشقاء لجأت  
اليها فوجدت فيها عزاء وشفاء وهناء

\*\*\*

أخلو إلى نفسي فأصل بينها وبين الله بالتفكير في خلقها ،  
وفي الحدود التي وضعها الله بين العبد وربيه ، وبين العبد والعبد .  
وفي تحديد حياتها بأجل تنتهي عنده ، وأتيسر ضعفها بقوة  
خالقها ، وحقها في الحياة بحق من أوجدها في الحياة ، وأتيسر  
ما رسم الله لعباده من مناهج وطرائق تؤدي إلى السعادة العاجلة  
في الدنيا ، أو الآجلة في الآخرة ، وما فرض على العبد أن يأخذ  
به نفسه إذا اشتد به الضيق ، أو سد في وجهه الطريق ، ثم أرجع  
إلى كتاب الله أقرأ فيه وأتبصر في معانيه ، فأجد فيه للنفس  
شفاءها ، وللروح غذاءها ، وأجد قوة على احتمال الشقاء ، وسبلاً  
للخلاص من البلاء ، ويهون في نفسي كل ما هالها ، ويصفر في  
عيني كل ما تعاطمها ، فأأبث حتى تستشعر نفسي شيئاً من  
الصبر والرضا ، ويشع في أعطافها وحواشيها نور من الأمل  
والرجاء ، ثم تطمئن إلى ما تجيد ، ثم تخلو من الهم ، وإذا أنا  
هادى وسعيد

\*\*\*

أرجع إلى بيتي فتلقاني ابنتي الصغيرة مهللة مستبشرة ، فأحلبها  
بين يدي وأقبلها وتمضي تحدثني بما أفهم ولا أفهم من لغوها ، ثم  
تسي بيني وبين أمها ، ويطول لغوها وسميها ، ثم تنظر إلى كل منا  
وعلى وجهها الصغير آيات البشر بادية ، وتحاول أن تشاركنا في  
هذا المرح الذي تشع به ، وتود لو تقيض علينا منه . فيميز على أن  
أعذب هذه الطفلة البريئة ببسوسى ، ويكبر على أن أكرر صفوها  
بوجوسى ، وأن أحمل اليها وإلى أمها هملاً لا قبل لها به ولا يد لها  
فيه ، ولا حيلة لها في صرفه عني . فأتنامى ذلك الهم الذي كان  
مبمث شقائي ثم أنساه ، وأمزق عن وجهي غشاوة البسوس التي  
كانت تنشأ ، ثم أعوها عموماً ، وإذا على الوجه ابتسامة تكون  
قلقة حائرة أولاً ، ثم تتصل بالنفس فتستقر وتصدر عن إحساس  
أخيراً ، حتى إذا انصرف عن النفس بعض همها الذي ملكها